مُصْطَلَحُ عُلُومِ القُرْآنِ
فِي ضَوْءِ عِلْمِ اللُّغَةِ النَّصِّيِّ

أ.م.د. علي جاسب الخزاعي
كليّة التربية للعلوم الانسانية - جامعة البصرة

فحوى البحث

هذا البحث يسعى إلى قراءة مصطلح علـــوم القران قراءة معرفية لكشف البناء الفكري له.وذلك مــن خلال تحليله ومقارنته بمفهوم علم اللغة النصي.إذ وجد الباحث في أثناء قراءته الدراسات النصية المعاصرة أن كثيرا من الأفكار والرؤى التي اعتمدها هذا العلم قد كانت تمثل المحتوى المعرفي لمصطلح علوم القران. وإنما يقع الفرق بينهما في أنَّ علم لغة النص قد أولاه الباحثون المحدثون عناية خاصة جعلت مبانيه الفكرية أكثر معرفة وبيانا ووضوحا من أطروحة (علوم القران).

ثم يتولى هذا البحث بيان المنطلقات الفكرية التي تمثل البناء المعرفي لعلوم القران من خلال مقارنتها بمفهوم علم لغة النص لوجود نقاط تشابه عديدة بينهما فقط. وهذا ما سوّغ للسيد الباحث إجراء مقارنة بين الاثنين.

المقدمة:

مازالت دراسات علـــوم القران الحديثة تعيد ما كتبه القدماء مع التوضيح والشرح، وتكرار الموضوعات المسائل نفسها مع تغير عرضها. ولم تحاول أن تتجه نحو الأسس المعرفية التي بنيت عليها أطروحة علوم القران. فلم تبحث في القيمة العلمية لهذا العمل الذي ولد في نهاية الحضارة الإسلامية، فلم ينل نصيبه من الدراسة، وحظه من البحث والتنقيب، وما يكفيه من التطبيق والتمثيل على الرغم من ظهور بعض الدراسات الحديثة التي أخذت تنحو منحى آخر في قراءة أطروحة (علوم القران) مثل كتاب (مفهوم النص، دراسة في علوم القران) للدكتور حامد أبو زيد، والنص و(الخطاب، دراسة في علوم القران) للدكتور محمد الباسط عيد.

علم اللغة النصي:

علم اللغة النصي ((علم يبحث في سمات النصوص وأنواعها، وصور الترابط والانسجام داخلها، ويهدف إلى تحليلها في أدق صورة تمكننا من فهمها وتصنيفها، ووضع نحو خاص لها))[1].

يتميز علم النص بمجموعة من السمات، والخصائـــص التي تمنحه استقلاليته، وفرادته، ومناهجه. ولعل من أهم تلك السمات عنايته بالنص بوصفـــه أكبر وحدة مفاهيمية، ذات دلالة محددة، والأخرى ما أطلق عليه (التداخل المعرفي)، ويراد منها منح علم النص صفة الشمولية، إذ لا تنحصر إفادته من العلوم الأخرى في علم دون آخر، بل يسعى إلى الاستفادة من كل ما يمكنه أن يشترك في عملية تحليل النص لاستنطاقه، واستخراج دلالاته. ومن هذا المنطلق ((فقد تشعبت المنابع التي استقى منها مفاهيمه، وتصوراته، ومناهجه))[2].

و علم النص في إفادته من العلوم الأخرى، يكون قد جمع بين المعارف المتباينة، والمتفارقة. وهذا ما جعل هذه السمة من علامات السلب في دائرته.

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق الحديث النبوي انموذجا مجلة علوم اللغة مج ٩ العدد ٢ سنة ٢٠٠٦.

(٢) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: أ.

وهو ما يبدو واضحا في ((تحديد المجال الذي ينبغي أن يُفهم من إطلاق علم اللغة النصي عليه، فكثير من الأشياء غير المتجانسة تطرح غالبا تحت شعار علم اللغة النصي))[٣]. وان سيره نحو الشمولية[٤] ((لابد من أن يفضي إلى غموض زائد في مفاهيمه المتخصصة، وفي إجراءاته))[٥]، لكنَّ علم لغة النص استطاع أن يتجاوز هذا المشكل؛ لأنَّه تميز ((بقدرة فائقة على استيعاب كل ذلك الخليط المتباين، بل وتشكيل بنية منسجمة قادرة على الحفاظ على ذلك التداخل من جهة، وإبراز جوانب التفارق بينه وبين العلوم من جهة ثانية))[٦].

ولم تقع العلوم التي استقى علم النص منها تصوراته في دائرة واحدة. ففي الوقت الذي يستفيد فيه من العلوم اللسانية وما أفرزته من أفكار، ورؤى مختلفة حول دراسة اللغة. فانه أخذ من علوم غير لسانية من أدوات البحث ووسائله ما يسعفه في تحليل النص حتى قيل: ((إنَّه العلم الذي استطاع أن يجمع بين عناصر لغوية وغير لغوية لتفسير الخطاب، أو النص تفسيراً إبداعيا))[٧]. فقد انفتح هذا العلم على ((جملة من المعارف كعلم النفس والاجتماع والسيميائية والأسلوبية والذكاء الاصطناعي، ونظرية المعلومات، والعلوم اللسانية، والأدبية وغيرها))[٨].

وقد ولّد التداخل المعرفي الذي ميز علم النص مناطق مشتركة بينه وبين العلوم التي أخذ منها، واستعان ببعض تصوراتها إلى حد أن تكون هناك منفعة متبادلة. فعلم النص أخذ من تلك العلوم ما شكّل مفاهيمه المميزة، وأدواته التحليلية، ثم وَهَب لتلك العلوم نتائج تحليلاته التي قد توظّفها في حل مشكلاتها المعرفية، ومسائلها الغامضة والمعقدة[٩].

(٣) مدخل الى علم اللغة النصي: ٣. وينظر علم لغة النص: ١٥.
(٤) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات فان دايك ت بحيري: ١٤.
(٥) مدخل الى علم اللغة النصي: ٧.
(٦) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: أ.
(٧) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ب.
(٨) المصطحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، د. نعمان بوقرة: ٢٣.
(٩) ينظر: علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٢.

ولكن التداخل المشار إليه يجب أن يلتزم بحدود معينة، فلا يتجاوزها إلى حد الانفتاح الذي تضيع معه هوية علم لغة النص، فهناك حدود يجب إن يقف عندها هذا العلم عند بحثه في كل منطقة مشتركة مع علم آخر. فمثلاً يجب إن يكون مقدار استفادة علم النص من علم اللغة النفسي بقدر ما يساعده على فهم النص انطلاقاً من أن النصوص ليست في الواقع إلا نتاج عملية نفسية، وانعكاس لما يدور في خلد الإنسان من مشاعر وأحاسيس. ولكن لا ينبغي لعلم النص أن يتعدى مقدار الفائدة إلى الإحاطة التفصيلية بالظواهر النفسية[١٠].

وقد عمل علم النص على تحقيق سمة التداخل المعرفي بوصفها سمة جوهرية مميزة له عن غيره من خلال أمرين متلازمين، الأول احتواء أهم الأفكار اللسانية في دراسة الظاهرة اللغوية، وإضافة ما لم تكن الدراسات الألسنية تعنى به، وبتعبير آخر أنه عمل على((تجاوز الحدود اللغوية الصارمة، وتوسيع رقعة علم اللغة في اتجاهات مختلفة))[١١]. فإذا كانت عناية اللغوي بالمعلومات اللغوية في حد ذاتها من أجل ذاتها، لا يعنيه المجال الذي ينتمي إليه نص ما أو قائل هذا النص إلا في حدود معينة، وتحتل المعلومات الأخرى موضعا هامشياً، فلا تدخل في التفسير إلا بمقدار ما تكون الحاجة إليها ملحة))[١٢]. فان علم النص يوسع من دائرة عمله، يعد هذا العمل قاصرا عن الإحاطة بوظيفة اللغة الحقيقية، فهو يرى ((أن الفهم الحق للظاهرة اللسانية يوجب دراسة اللغة دراسة نصية] و [ليس اجتزاء الجمل والبحث في نماذجها))[١٣]. فاللغة بحسب التصور النصي لا يمكن أن تفهم من خلال نماذج وأمثلة مجتزأة. ومن هذا المنطلق يجب أن تكون ((دراسة النصوص هي دراسةٌ للمادة الطبيعية التي توصلنا إلى فهم أمثل لظاهرة اللغة؛ لأنَّ الناس لا تنطق حين تنطق، ولا تكتب حين تكتب

(١٠) ينظر: مدخل الى علم اللغة النصي: ١٠.

(١١) مدخل الى علم اللغة النصي: ٧.

(١٢) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٥.

(١٣) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٣٦.

جملاً أو تتابعاً من الجمل، ولكنها تعبر عن الموقف اللغوي الحي من خلال حوار معقد متعدد الأطراف مع الآخرين. وكثر في هذه الحال تصادم الاستراتجيات، والمصالح وتعقد المقامات. ومثل ذلك نراه في حدث الكتابة حيث تتعدد العلاقات بين مكونات الصياغة اللغوية، وترتد أعجازها على صدورها، وتتشابك العلاقات في نسيج معقد بين الشكل والمضمون على نحو يصبح فيه رد الأمر كله إلى الجمل، أو نماذج الجمل تجاهلاً للظاهرة المدروسة. ورداً لها إلى بساطة مصطنعة تخل بجوهرها، وتفضي إلى عزل السياقات المقالية والمقامية، والأطر الثقافية، واعتبارها أمرا قائما خارج النحو وطارئاً عليه))[١٤]. فعلم النص احتوى التصورات اللسانية وتجاوزها إلى تصورات لم تكن اللسانيات منها تؤمن بمنفعتها في دراسة الظاهرة اللغوية، فجمع علم النص بذلك بين عناصر لغوية وأخرى غير لغوية.

والأمر نفسه مع علم البلاغة، فقد احتوى علم النص أفكاراً بلاغية كثيرة، ثم تجاوزها بإدخالها مفاهيم لم تكن ذات جدوى في الحقل البلاغي، فقد كان هدف البلاغة الرئيس ((ينحصر في توفير القواعد، وإعداد النماذج التي يستطيع المتكلم بمساعدتها إقناع سامعيه بحديثه، وبمقدرته على تحقيق إثارة الشيء الذي يدافع عنه، ويمكن وصف الخطاب بأنه متحيز ويقوم على الإقناع. وقد اتسع علم لغة النص في الأساس بضمه تلك القواعد والنماذج والاستراتيجيات المتاحة، وتجاوزها إلى إمكانات أخرى، توفرت له من خلال الامتداد المعرفي، واتساع الأفق، والتداخل التصوري، ومكنته نظرته الشمولية من تخطي الامتداد الأفقي إلى أبعاد دلالية وإشارية وإحالية وايحائية تستعصي على النظر المحدد، بل استعانت بما يدور فيما وراء اللغة في التحليل، والتفسير حين وضع في الاعتبار مستويات القراء وأحوالهم النفسية، والاجتماعية، تعدد القراءة وأشكال التواصل ودرجات الفهم والاستيعاب، وطرق التذكر والاستعادة

(١٤) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٣٦.

وإمكانات التأليف، و كيفيات الترابط الذهني، وغير ذلك من أدوات وإجراءات وعمليات لم يتح لعلم من قبل أن ينظم بينها ويفيد منها كما اتيح لعلم لغة النص))[١٥].

فالتحليل النصي يقوم في الأساس على الاحتواء والإضافة، فيحتوي ما أسسته البلاغة أو الأسلوبية، لكنه ما يلبث أن يُدخل في عملية التحليل ما لا تعتقد البلاغة بقيمته اللغوية، والاختلاف بين التحليل البلاغي، والتحليل النصي يمثل جوهر التمايز بين العلمين الذي من أمثلته ((إنَّ الأول لا يُعنى إلا بتلك الأشكال المتجاوزة لمستوى اللغة العادية، أو الأشكال المنحرفة... أما التحليل اللغوي النصي فيُعنى بكل أشكال اللغة في الأساس، يتجه إلى المعنى أو ما يُطلق عليه المغزى سواء تحقق في صورة عادية أو صورة منحرفة))[١٦].

وهذا يعني أن دائرة البحث النصي أكثر اتساعاً من غيرها[١٧]. وما دفع النصيين إلى اعتماد فكرة التداخل المعرفي أمران مهمان هما:

أولاً: إن اشتراك مجموعة من المعارف والعلوم المختلفة في مادة بحثها التي يبنى عليها التحليل والتفسير والفهم يمكن أن يكون هو نفسه مادة أساسية لعلم جديد يُعنى ببحث مواضع الاتفاق وملامح التشابك المعرفي بين تلك العلوم، وقد أطلق على هذا الاتجاه الجديد ((علم لغة النص)) أو ((علم اللغة النصي))، أو ((علم النص)) وظيفته احتواء التداخل المعرفي بين تلك العلوم[١٨]. فهو يُعنى أيضا بالنص لكن غايته تختلف عن غايات وأهداف العلوم التي تداخل معها معرفياً[١٩].

ثانياً: تطور العلوم الحديثة، وإمكان الإفادة منها في تفسير الظاهرة اللسانية وتحليلها انطلاقا من الاعتقاد بان ((الوقوف عند الجانب الفعلي للغة مهم،

(١٥) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٩.
(١٦) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٦٠.
(١٧) ينظر: علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٦٢
(١٨) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٩٩.
(١٩) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ١٠٠.

ولكنه غير كافٍ))[٢٠] لإتمام عملية تحليل النصوص واستنطاقها، والاقتصار على ما تمنحه الدراسات اللسانية من أفكار يجعل تفسير النص محصور ومحدود في إطار الرؤية اللسانية. لذلك اتجه العلماء النصيون إلى ((ما يمكن أن يعينهم على تقديم فهم وتفسير معقولين إلى حد ما لتلك الظواهر))[٢١]. فهم يعتقدون أن ((عزل مستويات النص بعضها عن بعض قد أدى إلى نتائج مبتورة. وبما أن النص وحدة كلية كبرى، فان دراسة أصواته، وصرفه، ونحوه، ودلالته ليس كافيا بل يجب أن تراعى العلاقة الجوهرية بين تلك المستويات، ومفاهيم السياق، والمقام والاتصال، والمغزى))[٢٢]. بل إن (فان دايك) احد ابزر مؤسسي هذا العلم يرى أن التطور الذي حصل في العلوم التي تُعنى بدراسة النصوص هو الذي دفع بشكل صريح إلى تشكيل معرفي جديد في إطار علم متدخل الاختصاصات يسمى علم النص[٢٣].

وعلم النص بهذا الوصف صار ((بديلا عن النقد الأدبي النظري والتطبيقي، والنقد النوعي (نقد الشعر، القصة، الرواية، المسرحية، المقال، النقد، وعلم جمال الأدب، وعلم اجتماع الأدب، وعلم نفس الأدب... انه علم جامع... انه علم العلوم في الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية. يضم تحت لوائه عشرات العلوم الحديثة، والعلوم القديمة))[٢٤]. ومن هذا المنطلق يجب على العالم النصي أن يكون متابعاً لتطورات العلوم التي يمكن أن يستثمرها في عملية تحليل النص، وتفسيره[٢٥].

مصطلح علوم القرآن:

يذهب الباحثون في علوم القرآن إلى أنَّ هذا المصطلح له دلالتان، الاولى لغوية تركيبية تاريخية، والثانية اصطلاحية

(٢٠) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٩٧.
(٢١) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٩٧.
(٢٢) علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ٩٨.
(٢٣) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، فان دايك: ـ بحيري: ١١. و١٥.
(٢٤) علم النص دراسة جمالية، : ١٣.
(٢٥) علم النص دراسة جمالية، : ١٦.

هي الوارث الحقيقي للدلالة الاولى. فمصطلح (علوم القران) بحسب المعنى **الأول**: يعني مجموع العلوم التي تتصل بالقرآن وتتخذ منه موضوعاً لها لكنه يختلف من جهة وسائل البحث، ومنهجه وأدواته مثل علم التفسير، والقراءات، الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول والفقه والأصول والمعجم والصرف والنحو والبلاغة[٢٦]، وبعضهم أدخل علم الهيئة والهندسة، وعلم الطب مثل السيوطي[٢٧].

وهذا المعنى مأخوذ من الدلالة اللغوية لكلمة (علوم) وما تعنيه بعد إضافة لفظ (القرآن) إليها[٢٨]. وهو المفهوم المتداول عند القدماء، وما هو شائع عند استعمال مصطلح (علوم القرآن) في بداية الأمر لذلك وصفناه بالمعنى التاريخي[٢٩].

الثاني: وهو المعنى الاصطلاحي للمصطلح، ومفهومه الذي استقر عليه عند المتأخرين من العلماء والمحدثين، ويعرّف بـ((مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخه ودفع الشبه عنه ونحو ذلك. وموضوعه القرآن الكريم من أية ناحية من النواحي المذكورة في التعريف. بخلاف علوم القرآن بالمعنى الإضافي فإن موضوعه هو مجموع موضوعات تلك العلوم المنضوية تحت لوائه. وموضوع كل واحد منها هو القرآن الكريم من ناحية واحدة من تلك النواحي. فعلم القراءات مثلا موضوعه القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه وعلم التفسير موضوعه القرآن الكريم من ناحية شرحه ومعناه وهلم

(٢٦) ينظر: مناهل العرافان في علوم القران، عبد العظيم الزرقاني: ١/ ١٩. ومورد الظمان في علوم القران للشيخ صابر محمد: ٦، وعلوم القران الكريم، د. نور الدين زعتر: ٧، ونفحات من علوم القران، محمد أحمد معبد: ٧. ومعجم علوم القران، ابراهيم محمد الجرمي: ٦.

(٢٧) ينظر مناهل العرفان: ١/ ١٩.

(٢٨) ينظر مناهل العرفان: ١/ ١٩، وعلوم القرآن الكريم، د. نور الدين زعتر: ٧.

(٢٩) ينظر: مناهل العرفان: ٢٣ -٢٥.

جرا))[٣٠]. وبتعبير آخر، فان المفهوم الاصطلاحي لعلوم القرآن هو: ((علم واحد يجمع ضوابط تلك العلوم المتصلة بالقرآن من ناحية كلية عامة، أما علوم القرآن بالمعنى اللغوي، فان كل علم منها يدرس القران كله من زاوية اختصاصه آية آية دراسة تفصيلية))[٣١]. فدلالته الاصطلاحية تعني أن هذا المصطلح أصبح ذا مفهوم مختلف عما كان عليه؛ لأنَّه صار علما على المباحث الكلية الجامعة التي تتعلق بالكتاب الكريم... هو خلاصة علوم كثيرة لها اتصال بالقرآن الكريم من جوانب متعددة تجمعت تحت مسمى واحد))[٣٢].

فالدلالة الاصطلاحية لمصطلح علوم القران تشير إلى أهم سمة يتميز بها هذا اللون من المعرفة وهو العلمية، فعلى الرغم من استعمال صيغة الجمع في المصطلح إلا أن المراد منه الأفراد، أي أن المقصود هو (علم القرآن)، وهو علم يُعنى بالنص المقدس حصرا، إذ يمثل موضوعه، ومحل عنايته، واشتغاله. والغرض منه فهم النص القرآني وإيضاحه، وادراك معانية بصورة صحيحة[٣٣]. ويضيف بعضهم غاية أخرى تتمثل في الدفاع عن النص المقدس حينما تعترضه شبهة ما أو مشكل معين[٣٤].

ومن سماته الأخرى التي أشار إليها التعريف الاصطلاحي، شموليته، وكليته، وهي سمة توافرت له بسبب احتواه خلاصة علوم أخرى مستقلة بذاتها ومناهجها وأدواتها البحثية[٣٥]، فهو يأخذ من تلك العلوم بقدر حاجته، وما يحقق بغيته المتمثلة بفهم النص المقدس فهما محكما وجيدا. ومن ثم لا تعنيه التفصيلات التي يُعنى بها كل علم؛ لأنَّه يأخذ خلاصة كل مسائل من تلك

(٣٠) مناهل العرفان: ١/ ٢١.
(٣١) علوم القران الكريم: ٧.
(٣٢) ينظر: المدخل لدراسة القران الكريم: ٢٤، وعلوم القران بين البرهان والاتقان دراسة مقارنة، د. حازم سعيد حيدر: ٢٦.
(٣٣) ينظر: مورد الظمان في علوم القرآن: ٧.
(٣٤) ينظر: مناهل العرفان: ١/ ٢٢. مورد الظمان في علوم القرآن: ٧.
(٣٥) ينظر: مباحث في علوم القران، د. حسين صالح حماده: ١/ ١٢٢.

العلوم، بل يلاقح بين أفكارها عندما يستعين بها. فمثلا يستعين علم إعراب القران الكريم بقواعد النحو التي قررها النحويون لبيان الموقع الإعرابي للمفردة القرآنية، ولكن قد يتعارض المعنى النحوي الذي يحدده الإعراب مع فكرة أخرى يستمدها علم القران من علم أخرى مثل العقيدة الإسلامية، أو علم الكلام. فمثلاً في إعراب (عالم) في قال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١]. فان علم إعراب القران الكريم يعربه اعرابين، إذ يرى أبو البقاء العكبري أنَّ: ((قوله تعالى ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾ يقرأ بالجر على الصفة أو البدل من اسم الله تعالى))[٣٦]. ومن ثم يأخذ إعراب هذه المفردة احتمالين نحويين كل احتمال يستند إلى مفهوم نحوي مقرر في بابه. ومن ثم فان علوم القران أخذ من النحو ما يحتاج إليه في بيان موقع المفردة من السياق لكنه لا يتدخل في عمل النحويين ليناقشهم في مسالة توافر هذه المفردة وأشباهها على اعرابين، وكذلك لا يُعنيه وجود تشابه نحوي بين هذين المفهومين (الصفة والبدل)، فهذا من شأن النحاة لا من شأن علم القران أو علوم القران. ومن جانب آخر، فان علوم القران لا يرتضي وجود اعرابين لهذا المفردة فيستعين بعلم الكلام وعلم الاستدلال والعقيدة الإسلامية لترجيح احد الاحتمالين على الآخر، وقبوله[٣٧].

ومن الخصائص الأخرى لعلوم القرآن أنه علم ولد بعد أن تجاوزت المعارف والعلوم التي استقى منها أصوله ومبانيه، وأخذ أفكاره، وقواعده مرحلة التكوين والاستقرار. وأصبحت علوم ناضجة إلى درجة كبيرة ((فان بدء الكتابة، والتأليف في كل علم من علوم القران كان سابقاً لجمع أطراف هذه

(٣٦) التبيان في إعراب القرآن: ٩٦٠.

(٣٧) ينظر: تشابه المفاهيم النحوية وأثره في تعدد اعراب المفردة القرانية، د. علي جاسب الخزاعي (مخطوط).

العلوم))[٣٨] في علم واحد، أو تحت مسمى واحد.. ومن ثم يمثل مرحلة متأخرة لم تكن لو لم تقطع تلك العلوم شوطاً كبيراً في بحوثها ودراساتها. أي أن التطور المعرفي والعملي لها هو ما دفع لتأسيسه وتكوينه علما مستقلا عنها بموضوعه وأبحاثه، متخذا من نتاجتها أدواته في تحليل النص القرآني وتفسيره.

ومن سماته الأخرى أنه علم تأسس لوجود جامع مشترك بين معارف وعلوم متعددة في مشاربه واتجاهاتها ومناهجها، وأدواتها وغاياتها تجسد في النص القرآني، فكل علوم القران بحسب المدلول اللغوي تتخذ من النص القرآني مادتها الأساسية. ومن ثم أصبح من الضروري أن يكون هناك علم جامع لتلك العلوم وظيفتـه أن يقدم فهما واضحا وجيد للنص القرآني من خلال تحليله وتفسيره بالاعتماد على جميع العلوم. فكل علم منها عند اشتغاله بالنص المقدس لابد أن يكون قد أولى المعنى القرآني في سياقه عناية خاصة من زاويته. ومن ثم كانت الحاجة ملحة لتكوين علم يجمع رؤى تلك العوم في رؤية واحدة يستطيع من خلالها أن يقدم فهما متناسب مع مكانة هذا النص العظيم. وبتعبير آخر، فان النص القرآني نفسه هيأ أرضية تداخل تلك العلوم بعدما فرض واقعه على متلقيه في أن يؤسس علومه التي تعين على فهمه[٣٩]، فمثّل النص القرآني منطلقاً لعلوم عديدة ما سهّل أن تدمج تلك العلوم التي اشتغلت على النص بعلم واحد أُطلق عليه مصطلح (علوم القران).

مصطلح علوم القران في ضوء مفهوم علم النص:

ما استعرضناه من سمات جوهرية تميز بها علم النص، وعلم القران يبين لنا درجة التقارب العلمي بينهما لوجود تشابه كبير، ومجموعة من المسائل التي اشتراكا في اشتراطهما للتحقق العلمي.

ولعـــل أول السمات المشتركة هو

(٣٨) علوم القران واعجازه وتاريخ توثيقه، د. عدنان محمد زرزور: ١٩١.

(٣٩) علم النص، دراسة جمالية، د. مدحت الجيار: ٤٧ –٤٨.

مبدأ التداخل المعرفي. فكلاهما بوصفهما علمين قاما على أساس التداخل المعرفي. أن علم لغة النص سعى إلى الاستفادة من كل ما يمكنه أن يشترك في عملية تحليل النص لاستنطاقه، واستخراج دلالاته. ومن ثم عمل على الجمع بين المعارف المتباينة، والمتفارقة لتحقيق ذلك الغرض، وقد استطاع أن يتجاوز مشكل اختلاف العلوم بقدرته على استيعاب كل ذلك الخليط المتباين، بل وتشكيل بنية منسجمة قادرة على الحفاظ على ذلك التداخل المعرفي. والأمر نفسه مع علوم القران، فإنما سمي بهذا المصطلح؛ لأنه اتجه إلى الأخذ من كل علم خلاصة قواعده، وأفكاره التي تساعده على فهم لنص المقدس، وتحليله. والعلوم التي اعتمد عليها لم تكن في باب واحد، ولا في دائرة واحدة بل كانت متعددة مختلفة متباينة ما قد يكون بين بعض أفكارها تناقض. إذ اعتمد على العلوم النقلية والعلوم العقلية، فجمع بين الرواية والدراية، بل أن السيوطي فيه ادخل علم الطب والهندسة. ولاريب في أن بعض هذه المعارف قد تتناقض في ما أنتجته من أفكار.

وهذا التداخـــل مبني على أساس الفائدة الحاصلة من تلك العلوم فقط، فليس من شأن هذين العلمين الكليين أن يتدخلا في عمل العلوم التي تمدهما بالقواعد والأفكار. فهما يأخذان ما ينفعهما في فهم النص وتحليله. ويتركان ما لا يرتبط بهذه المسالة الجوهرية. فهما يتدخـلان في مناقشة تفصيلات المسائل التي هي من شأن تلك العلوم وتخصصها.

وإذا كان علم النص لساني المولد والنشأة، فان علوم القران ولد كذلك من رحم الدراسات اللغوية. فتفسير القران الكريم بوصف أهم تلك العلوم نشأ لغوياً نحويا تمثل في تفسير مفردات الكتاب الكريم تفسيراً لغويا، ثم ما لبثت كتب معاني النحو التي جعل التفسير النحوي، والإعراب محورها الأساس أنَّ استقامت فرعاً من الفروع الممهد لنشأة علوم القران تاريخيا. ومثلما تشكل البلاغة جزءا كبيرا بقواعدها وأصولها

في علم النص، فان علوم البلاغة العربية تمثل ابرز علوم القران، إذ تأخذ مساحة واسعة منها مثلما نطالع الكتب المخصصة لذلك(٤٠).

أما عن الأسباب والدوافع التي شكلت كلا العلمين فتكاد أن تكون الاسباب نفسها.

فعلوم القران إنَّما أصبحت علما واحداً كليا جامعا لمجموعة من العلوم التي تخدم القران على أساس توافر القاسم المشترك بين تلك العلوم، وهو النص القرآني ما سمح بقيام علما معتمدا على تلك العلوم مستقلا عنها في الوقت نفسه. وهذا العلم قد اتخذ من النص المقدس مادته الأساسية، يسعى إلى تحليله، وتفسيره اعتمادا على ما تقدمه تلك العلوم من أفكار وقواعد. وعلوم اخرى، ومادام مصطلح علوم القران بهذه السمة، فإنَّه يناظر علم لغة النص الذي قام مثلما أشرنا إلى ذلك على أساس الحاجة لجود علم يُعنى بدراسة النص الذي كان موضوعا، ومادة أساسية لعوم كثيرة.

فعلم لغة النص ولد بعد تطور الدراسات اللسانية وغيرها من العلوم الإنسانية، وكذلك علوم القران، فقد تأسست فكرته بعد أن وصلت العلوم الإسلامية إلى مرحلة نضوجها الفكرية، والنظرية. بل إن بعضها وصل إلى مرحلة الركود، وعدم الإنتاج بسبب كثرة الدراسات التأسيسية والتنظيرية مثل علم النحو والبلاغة. ومن ثم يشكل علوم القران مرحلة متاخرة من حياة الفكر الإسلامي، لكنَّ هناك فارقاً أساسياً بين علم النص، وعلوم القران. وهو أنَّ علم النص بدأ نضراً، ومازال يستفيد من الدراسات الحديثة، والمعاصرة. أما علوم القران فقد توقف تطوراته وتطبيقاته التأسيسية والتنظيرية عند كتاب الإتقان في علوم القران للسيوطي، ولم يعمل المحدثون على إكمال ما بدأه سلفهم. فغدت دراسات علوم القران الحديثة تكرارا لما كتبه السابقون وإعادة ترتيب. إذا ما استثنينا محاولة الشيخ عبد العظيم

(٤٠) ينظر البرهان في علوم القران للزركشي: والاتقان في علوم القران للسيوطي:

الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان في علوم القران). فقد ركز فيه على موضوعات لم تكن محل عناية بالقدر الكافي عند القدماء، وهو موضوعة الدفاع عن القران، ورد الشبهات التي تثار حول النص القرآني. وهو موضوع لم يلقَ عناية كافية لبحثه ودراسته.

وهذه المقارنة التي تكشف لنا عن التقارب المعرفي الكبير بين علوم القران، وعلم النص. تبين حقيقة أطروحة علوم القران، وقيمتها العلمية والمعرفية. ولو أن دراساته قد استفادت من الدراسات الحديثة، وما أثمرته، و أن المحدثين لم يكرروا ما قاله السلف، وبدأوا من حيث انتهوا. لكان لعلوم القران من الدراسات، والبحوث ما كان لغيره، أو العلوم الإسلامية الأخرى؛ لأنَّ أطروحة علوم القران كانت محاولة رائدة، إذ حاولت أن تجمع التراث الإسلامي المرتبط بالنص لتركيز تلك العلوم واختصارها بحيث يمكن استيعابها، واستثمارها في فهم النص القرآني[٤١]. وعملت على جمع ما له علاقة بهذا النص المقدس من قريب، أو من بعيد[٤٢]. وهذه الرؤية المعرفية التي تقوم عليها هذه الأطروحة التراثية العظيمة تشبه إلى حد كبير مقولات علم النص[٤٣].

الخاتمة:

يمكن القول في خاتمة هذا البحث إنَّ مصطلح علوم القران هو تعبير قديم عن أطروحة حديثة تذهب إلى إمكان تأسيس علم نص كلي يجمع مجموعة متعددة من العلوم التي تختلف في رؤاها وعملها ومناهجها وأدواتها البحثية مع احتفاظه باستقلاله العلمي والمعرفي الذي يميزه عن غيره من تلك العلوم، فلا يغدوا احدها بل له ما يفرقه عنها، علم يُعنى بدراسة النص لتحليله وتفسيره. ويأخذه أدواته وأفكاره من تلك العلوم من دون أن يتدخل في بحثها المعرفي.

(٤١) ينظر: مفهوم النص. دراسة في علوم القران، د. حامد أبو زيد: ١٢.

(٤٢) ينظر: مفهوم النص. دراسة في علوم القران، د. حامد أبو زيد: ١٣.

(٤٣) ينظر: النص والخطاب، قراءة في علوم القران، د. محمد عبد الباسط عيد: ٩.

و هذا المقارنة تدلنا على عظم ما فعله القدمـاء، وجهودهم القيمة التي بذلوا من اجل خدمة العلم، فمصطلح علوم القران أطروحة حاولوا من خلالها أن يؤسسوا علم النص القرآني يُعنى بتفسيره، وإيضاحه معتمدا على الأفكار، والقواعد التي انتجه العلوم التي سبقت هذا العلم. وجسّدت أساسه الفكري. وهذا يعني أن القدماء كانوا يؤمنون بإمكان تحقيق مثل هذا العلم خدمة للنص القرآني.

مصادر البحث:

١. الإتقـان في علوم القران لجلال الدين السيوطي ٩١١هـ، دار الفكر للطباعة، والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٢. البرهان في علوم القران تاليف للامام بدر الدين أبي عبد الله محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي المتوفى ٧٩٤ه، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الاولى، ٢٠٠٦م.
٣. التبيان في إعراب القرآن: ٩٦٠.
٤. تشابه المفاهيم النحوية وأثره في تعدد اعراب المفردة القرانية، د. علي جاسب الخزاعي (مخطوط).
٥. علم اللغـة النصي بين النظرية والتطبيق الحديـث النبوي انموذجا مجلة علوم اللغة مج ٩ العدد ٢ سنة ٢٠٠٦.
٦. علم النص دراسة جمالية نقدية، د. مدحت الجيار، القاهرة، الطبعة الاولى، ٢٠٠٥م.
٧. علـم النـص مدخل متداخل الاختصاصات، فان دايك، ترجمة وتعليق د. سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، الطبعة الاولى ٢٠٠١م.
٨. علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الاولى ١٩٩٧م.
٩. علوم القران الكريم، د. نور الدين زعتر، مطبعة الصباح، دمشق، الطبعة الاولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
١٠. علوم القران بين البرهان والاتقان دراسة مقارنة، د. حازم سعيد حيدر، مكتبة دار الزمان، السعودي،

د. ط، ١٤٢٠هـ.

١١. علوم القران واعجازه وتاريخ توثيقه، د. عدنان محمد زرزور، دار الاعلام، الاردن، الطبعة الاولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٢. مباحث في علوم القران، د. حسين صالح حماده، دار المحجة البيضاء، بيروت لبنان، الطبعة الاولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٣. مدخل الى علم اللغة النصي، فولفجانج هينه، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي، السعودية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١٤. المدخل لدراسة القران الكريم والسنة والعلوم الاسلامية. د. شعبان محمد اسماعيل، دار الانصار القاهرة. د. ط.

١٥. المصطحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، د. نعمان بوقرة، جدارا للكتاب العالي، عمان الاردن، الطبعة الاولى ٢٠٠٩م.

١٦. معجم علوم القران، ابراهيم محمد الجرمي، دار القلم، دمشق، الطبعة الاولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٧. مفهوم النص. دراسة في علوم القران، د. حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثامنة، ١٩٩٨.

١٨. مناهل العرافان في علوم القران، عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربي، بيروت، بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٩. النص والخطاب، قراءة في علوم القران، د. محمد عبد الباسط عيد، مكتبة الاداب، القاهرة، الطبعة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٩م.

٢٠. نفحات من علوم القران، محمد أحمد معبد، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، الكبعة الاولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.